من تراب الطريق (٥١٦)

عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (١) (*)

تتشابه عقول الآدميين، ولكنها لا تتطابق قط .. وهذا التشابه بين العقول يسمح بالنقل والتسجيل والتحليل، والمقارنة والمحاكاة والاعتياد، وبالاعتراض والرفض والمقاومة، وبالمقت والعداء، وبالموافقة والموالاة والانحياز والتعصب.

ذلك أن عقولنا متصلة بعواطفنا اتصالا داخليا عميقا .. تأخذ منها وتعطيها .. تخدمها وتستخدمها .. مهما زعمت من الحيدة وادعت التجرد .. وهذا واقع موجود فى جماعات الآدميين فى كل مكان وفى كل عصر .. فى الغابر والقديم والحديث .. وقد نسمى ذلك حركة فكرية .. ضعيفة أو قوية ..تعبر عن نفسها باتصال العقول بالعواطف فى أفكار وتصورات ومصدقات، بل وفى معتقدات عامة لا تقتصر على فرد، يرددها أغلب الناس، ولا تناقش عادة مناقشة فحص واستكشاف وتحقق .. وإنما تستعمل فى التعامل وتكوين العلاقات إيجابا وسلبا .. وعليها تؤسس العلاقات والروابط الاجتماعية التى تنشئ أو توجد الجماعات البشرية صغيرها وكبيرها، وإليها يحتكم الآدميون عندما يلوح أو يقع بالفعل خروج عليها أو انتهاك لها .لأنها بصيرورتها عامة بالاعتياد على اعتناقها صارت ملزمة لكل فرد ولو كان مخالفا .. وهذا الإلزام يختلف قوة وضعفا بحسب فكرة الجماعة عن خطرها وأهميتها فى زمن معين وظرف معين.

(*) المال ٢٤/٨/٢٠١١

ذلك لأنها شئنا أم أبينا ، أردنا أم لم نرد ، متصلة اتصالاً دائما بحياة الآدمى ككل ، ولا تنقطع صلتها قط بعواطفه وغرائزه ، ولا يحس الفرد بنصيبه الشخصى فى نشأتها ووجودها ، وإنما يحس بنصيبه المتغير فى المسئولية عنها والحساب على أساسها .. نتيجة انتمائه إلى الجماعة انتماءً متوارثا فى الأغلب الأعم ، أو بسبب انتماء طارئ يحرص على إحساس الآخرين بوجوده لإظهاره أو لتأكيده .

وتلك الأفكار والتصورات والمصدقات والمعتقدات العامة ، التى كانت فى أصلها نتيجة عقول قليلة العدد قابلة لدى أصحابها للمراجعة والتنقيح ، تبتعد بتوالى الزمن عن أصلها ، وتفقد من ثم قابليتها السهلة للمراجعة والتنقيح ، نتيجة اعتناق الجماعة لها اعتناقا يجعلها عامة .. إذ تصبح بذلك داخلة فى تكوين الجماعة ذاتها .. الفكرى والعاطفى معا .. وتبعا لذلك تتسم بنوع من الاستقرار والثبات فى مواجهة التغيير العمدى الصريح الملحوظ .

لذلك نرى ، خاصة لدى المكلفين بالحفاظ عليها ، شدة التردد فى المساس بها ، مهما كانت حجة التغيير ودواعيه ، بل ومهما أحسوا هم بوجوب مسايرة التطور والتقدم الفكرى الحادث فى غيرها من نواحى وجوانب الحياة العامة التى لا يتوقف ما يطرأ عليها من دواعى التغيير تبعا لقابلية حياة البشر للتطور والتقدم ، أو للتخلف والتدهور ، ومن ثم استحالة ثباتها وجمودها على حالة واحدة !

فحياة البشر نتاج ما يكتتب به الأحياء فى استخدامهم لمواهبهم واستعداداتهم فى تصرفاتهم حسب ظروفهم وزمانهم ومكانهم ، وآثار ذلك لمصلحة جماعتهم أو عليها ..هى ومن يتصل بها أو يحاكيها أو يتأثر بها من الجماعات الأخرى !

وقد تسمى أو توصف هذه الأفكار والتصورات والمعتقدات العامة ، بأنها عقلية الجماعة أو عقلها الجمعى ، تمييزًا لها عن عقل ووعى الفرد ، وإشارة إلى أن أصلها الأول هو دائما وعى وعقل آدميين قليلين .. فعقلية الجماعة حدث بشرى اجتماعى .. ومن ذلك التأثر الحتمى بالتغييرات طويلة العمر التى تطرأ على حياة الجماعة وتستقر فيها زمانا .. وهذه التغيرات قد يبدأها أفراد غير عاديين ، ولكنها لا تتم وتستقر إلاّ من خلال حياة أجيال من البشر تتواجد وتتشكل منهم الجماعات ويصير لها ماض وحاضر ومستقبل مأمول ، وهذه الصيرورة تنفصل عن حياة كل فرد كان ثم رحل أو يرحل أو سيرحل !

ونسبة هذا الوجود الجماعى الصرف إلى بدايته وإلى فرد معين أو أفراد معينين بالاسم هذه النسبة لا تنصرف إلى تمثيل حقيقة وقعت ، وإنما تمثل فى الغالب تمجيدا وإشادة وتخليدا لذكر ذلك الفرد أو هؤلاء الأفراد ، وتنويها بما تم على يده أو على أيديهم مما صار بعد ذلك اعتقادًا عامًا تفتديه الجماعة التى اعتنقته بالأموال والأرواح .. هذا وبمجرد أن يصبح المعتقد أو المعتنق عاما لجماعة ، فإنها تستعمله فى ممارستها حياتها على أنه شىء تم وكمل واستقر بالنسبة لعصرها الذى تحياه بالفعل ، ولكن ليس بالنسبة للعصور المستقبلة التى سوف تحياها ذراريها ، فتمام وكمال الفكرة أو المعتنق دائما نسبى مقصور على أبناء هذا العصر أو ذاك .. إذ هو وإن مَثّل عصرًا مضى وانقضى فيما سلف من الزمان ، فإنه لا يمثل الجماعة بالضرورة فى عصر تالٍ لم يحن بعد ولم يأت أوانه أو يوجد أهله !

وادعاء الثبات التام والاكتمال لكل عصر فى المعتقدات والمعتنقات والمصدقات وحدها بلا تفريق فى الفهم والتصور والزمان والمكان

والظروف ، ودون التفات إلى الجديد الذى حل محل القديم فى الاعتبار والمصداقية ، ينطوى على مصادرة تجمد حياة الجماعة بما كان فى الغابر الذى نسيته الجماعة أو لم يعد يوافق ظروف وأحوال زمانها وحاضرها ..وهو جمود أو تحجر يناقض ناموس أو نواميس الحياة الاجتماعية الجديدة وحتمية التغيير والتطور ، والتى يستحيل أن تثبت بشكل دائم متحجر على نفس الصورة والمعنى إلى الأبد !

من تراب الطريق (٥١٧)

عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٢) (*)

إن المتأمل بوعي وفطنة ، فى أحوال الجماعات ، يجد أن مضمون عقلية الجماعة يتغير بالزيادة أو الانتقاص مع درجة تطورها ومدى اتساع أو تقلص نطاقها وأهميتها ، ودرجة مشاركتها فى تقدم أو تأخر عصرها ولا بد سوف يلاحظ أن كثيرا أو قليلاً مما كان يدخل فى مضمون عقلية هذه الجماعة أو تلك ، وفى مصدقاتها قد خرج منها وانفصل الآن عنها بل وصار أغلبه منسيا .. وقد يكون ذلك لأن موضوعاته صارت من أبحاث العلم الوضعى الدقيق ، وهى أبحاث لا وزن ولا قيمة فيها للمصدقات ، ولا يُرجع فى شأنها لعقلية الجماعة فى الجماعات الراقية ، وإنما يُرجع إلى ما يحدده العلم الوضعى أو الفن أو التكنولوجيا فى أحدث ما وصل إليه كل منها .

وليس معنى هذا أن البشر قد تخلصوا من الارتباط بعقلية الجماعة بتلك الروابط العاطفية الفطرية التى أشرنا إليها ، إذ لا رجاء فى التخلص منها فى أى مستقبل قريب حتى فى الجماعات الأكثر تقدما . لأن الجماعات البشرية كلها قد أسست حياة أفرادها ونظامها العام ، ومرافقها وإداراتها ، وسياستها وسلمها وحربها على أساس قيام عقلية الجماعة والاستجابة إلى ما يرضيها ما أمكن ذلك. لأنها قاسم مشترك أعظم فى عقلية غالبية الناس ، يتناول حاجاتهم ومطالبهم وأغراضهم وجدهم ولهوهم ومولدهم وموتهم وعلاقاتهم وروابطهم ومواقف بعضهم من بعض أحياءً وأمواتًا !

(*) المال ٢٥/ ٨/ ٢٠١١

إننا فى سعينا لذواتنا نحاكى فى الصور والأشكال أمثالنا ممن سبقونا أو وجدوا معنا أو من لحقونا من بعدنا . ولكننا لا نلتفت إلاّ نادراً فى أحوال المرض والشفاء إلى أن كلاً منا فرد فى ذاته ، لا يشاركه فى ذاته أو مصائرها سواه ، ولا يقدر على هذه المشاركة فى حقيقتها حتى أبواه أو أبناؤه .. مهما أرادوا .. وهذه لبنة الأساس فى حياة الآدمى .. منها يبدأ ويستمر وجوده ، وبانقطاعها تنقطع حياته !

هذا وبغير الأديان ، لا نعرف الخالق جل شأنه معرفة مباشرة ، إذ لا تحسه حواسنا ولا يدركه وعينا وعقلنا إدراكهما للماديات والمعنويات ، وإنما نعرف بشىءٍ من التأمل معرفةً قسرية جبرية معطيات الخالق عز وجل إيانا ، التى منها ذات الحياة والحواس والوعى والعقل .. هذا ومعطيات الخالق لنا كلها مجانية أعطاها لنا سبحانه وتعالى عند إيجادنا من العدم . أعطاها تبارك وتعالى لكل آدمى بصفة عامة ، لكنها ليست على وجه التساوى . وهذه المعطيات الإلهية التى لم يطلبها أحد منا ، لا هو ولا ذووه ولا من سيأتى من ذراريه ، ولم يدفع أو غيره مقابلاً لها . وعلى هذه المعطيات قام ويقوم وسيقوم إلى آخر الزمان ، وجود الآدمى وترتيب وتسلسل عمره أدوارًا وأطوارًا حتى نهايته .

لم يُؤخذ رأى أى منا فى وجوده ، لا يمكن أن يُؤخذ ، لأنه لم يكن موجودًا قبل أن خلقه الخالق عز وجل وأوجده من العدم . وهذا الإيجاد الذى ينتهى حتما إلى فناء وعدم ، بإرادة الخالق جل شأنه ، لولاه ما عرف كل منا وجوده ووجود أمثاله الطارئ الفانى المحدود ، ولا عرف ماضيه وخاتمته وأسرته وجماعته ووطنه ، وضآلة نصيبه وحصته فى ذلك كله ، خاصة فى آتيه ومستقبله الذى لن يراه بعد غيابه واختفائه . ولولا هذا الإيجاد لما قرأ كل

منا ماضى الأحياء وحاضرهم ومستقبلهم بوسائله العرجاء التى يغشاها الغموض، أو يقرأها بالخيال والأحلام والأوهام قراءة المسافر الراحل . ولولا هذا الإيجاد لما اعترف الإنسان بأن الأديان والأعراف والأصول والقوانين والعلوم والفنون والتاريخ الحضارة تسبقه حتما فى الوجود وتبقى بعد زواله لكى تعيش بها الجماعات الآدمية ويستفيد بها أمثاله ممن يأتون من بعده ليكتبوا بدورهم بما لديهم ثم يختفون ليحل محلهم خَلَفٌ يعالج زمنه وظروفه .. معتمدا على ما تركه له سابقوه مما بقى بعدهم لديه، مع مواهبه هو واستعداداته هو التى لا آخر لها والتى أعطيت له مجانا عند إيجاده .. وهكذا إلى غير نهاية يعلمها البشر، تسير حياة الآدميين من ماض عبر حاضر إلى مستقبل .. تمتلئ الحياة بالبَشَر لتفرغ، وتفرغ لتملأ، بلا توقف فى علمنا ونظرنا وخبرتنا الدنيوية .

وكل آدمى منا، يستخدم مع وعيه وعقله الفرديين يستخدم العقلية الجماعية السائدة فى محيطه دون أن يشعر باختلاف، بل دون أن يلتفت فى الأغلب الأعم إلى أنهما ليسا شيئاً واحداً، وليسا من نفس الطبيعة، وذلك لاندماجهما المعتاد فى مجرى حياته العاطفى .. وهما لا يتباينان إلاَّ خارج هذا المجرى حين لا يكون فى الأمر مجال لتحريك العواطف كما فى مسائل الرياضيات والطبيعيات والكيماويات وباقى المجردات والعموميات التى لا تتعلق بها أغراض الآدمى الخاصة أو العامة، أو مصالحه الخاصة أو العامة .

هذا وعقلية الجماعات بطيئة التغير إذا قيست بعقلية الفرد . لأنها تستغرق أجيالاً فى التكوين، وقلما يلاحظ الحكام هذا التغير فى الإدارة وفى سياسة رعاياهم . وكثيرا ما يغالون فى الحماس للجديد من الأنظمة والمبادئ

والعقائد، ويجتهدون فى حمل الناس على اعتناقها بكل حيلةٍ ووسيلة .. بما فى ذلك التخلص من مقاومة المعارضين بالإبعاد أو الإغراء أو التهديد أو الإفناء، وإلزام غيرهم بالطاعة والإذعان، وضمان ذلك كله بالمراقبة الساهرة وإشاعة الخوف من العقوبة والبلاء، أو الإغراء بالمزايا والإشراك فى السلطة لمن يغريهم أو يجتذبهم هذا الإغراء .. لينتهى ذلك كله إلى مآسٍ ونكبات وضياعٍ وخسار .. تظل بعده عقلية الجماعة على حالها السابق القديم من الالتصاق بعقائدها ومصدقاتها المختلطة بعواطفها وعواطف آبائها المتوارثة والجمود والتحجر عليها !!

من تراب الطريق (٥١٨)

عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٣) (*)

يبدو أن الاندماج فى العواطف العميقة لغالبية الناس ، هو جوهر عقلية الجماعة ، وبدونه لا يمكن أن تتغير .. بدون هذا الاندماج العاطفى العميق الذى امتد أجيالاً وقرونا ما تركت الجماعات مللها ونحلها الأولى إلى معتقداتها الدينية التى تتمسك بها اليوم والغد ، تمسكا لا يسمح على ما فيه من رخاوة وترخص لا يسمح بالنسيان والإغفال .

وبديهى أن مقصودنا من كلمة الجماعة وكلمة الجماعات ، بشأن عقلية الجماعة أو الجماعات ، مقصور على المجاميع التلقائية التى لا تحتاج إلى انخراط إرادي قصدى لتحقيق غرض ما أو أغراض معينة مشتركة ، كالجمعيات والفرق والمعاهد والنوادى والنقابات والاتحادات والأحزاب .. فمثل هذه المجاميع ينحصر تلاقيها على أغراضها وأهدافها من هذا التلاقى ، ولا يُؤبه عادةً فيها لما يكون أو لا يكون بين المنتمين إليها من تقليد عام مشترك يكون لها عقلية جمعية بالمعنى العام للمعتنقات أو المعتقدات التى تتشارك فيها الجماعة اشتراكا تلقائيا يشكل العقل الجمعى على مدار الأجيال والقرون . بل إن هذه الفرق أو الجمعيات أو الأحزاب وما شاكلها أقرب إلى الفردية منها إلى الظاهرة الاجتماعية المبنية على الاندماج العميق للأفكار بالعواطف ، ويحدث ذلك لمجرد الاشتراك فى وحدة الوطن أو وحدة الجنس أو وحدة الملة أو المذهب .

(*) المال ٢٩/٨/٢٠١١

فعقلية الجماعة ، هى دائما من نواتج وعى الآدمى وعواطفه معا ، بمزيج من الاشتراك والاندماج ، يمتص كل فردٍ حصته منه على قدر طاقته واستعداده وتربيته وفهمه ومصادره المتاحة .. وذلك من دوام تبادله الواعى وغير الواعى مع غيره من الأفراد فى محيطه بكل أدوات التبادل التى تمزج بين رؤية الحاضر وما معها من آثار الماضى وما يتردد لديها من مخاوف وآمال بالمستقبل .

فعقلية الجماعة ، أو عقلها الجمعى جماع دوافعها الواعية وغير الواعية .. ترجع إلى سلوك مشترك واختيارات عامة تسير فيها أو تتجه إليها الجماعة ، تؤيدها غالبية الأفراد تأييداً مبنياً دائماً على اشتراك وامتزاج العواطف والعقول فى الرؤية .. ومن هنا كانت قابليتها للتعديل والتقويم والتسوية والتغيير والتبديل الجماعى قابلية مبناها الاستجابة لما تختاره الغالبية وتصر عليه من أفكار أو معتنقات أو معتقدات أو مصدقات .

ولكن عقل الآدمى الفرد ، ليس كعقل الجماعة ، أو ليس هو هو عقلية الجماعة ، وإنما هو هبة خلْقية قابلة للتمدد إلى غير حد وقابلة أيضا للتقلص إلى غير حد . قد تسعى بالفرد إلى المزيد من الفهم والمقابلة والمعرفة ، ومن الوصل والفصل ، والجمع والتفريق ، والتصنيف والافتراض والتصور ومراجعة ما معها ، استجابةً لداعٍ أو لشك يدعوها للمراجعة لتصحيح ما قد تجد أنه تسرب إليه الخطأ أو اللبس أو الوهم أو القصور أو الخلط فى الملاحظة والمراقبة ، وترى أن عليها متى عثرت على شىءٍ من ذلك ، أن تعلنه للناس .. لأن هذا الإعلان هو المظهر الأمثل والأجدر والأكرم لتلك الهبة الخلْقية ولما يلازمها من الإحساس بالأمانة والصدق على ما وهبت من نعمة

القدرة على رؤية الحقيقة بعيدا عن الغرض والمصلحة والعاطفة .

الجماعات لا تخلو فى كل عصر ، من أفراد يستعملون صواباً أو خطأ هذه النعمة ، ويعترضون صواباً أو خطأً على عقلية جماعتهم ، ويتعرضون للأذى .. تعلقاً منهم لإحساسهم بالأمانة في إعلان ما يعتقدون أنه حقيقة وصدق . ويبدو أن هذا الصنف من الآدميين طليعة تشهد بحيوية النوع الإنساني .. لا ينقطع وجوده إلاَّ في المجتمعات التي تحللت وأوشكت أن تبيد .

وأنت ترى في الكتب المقدسة إشارات كثيرة إلى تلك الجماعات التي كانت وانقرضت . وينبغي للعقلاء ألا ينظروا بعين القنوط إلى الجماعات المتأخرة التي لا تزال تحتفظ حتى الآن ببدائيتها وتستسلم خاملة إلى ما هي عليه من قديم ، مما لم يعد له الآن مكان أو معنى ! ذلك أن صحوة الجماعات لا تحدث معاً ولا تباعاً ، حتى نفترض أن حال جماعة ما من الخمول لا أمل فيه . فنحن لا نعرف إرهاصات وبشائر وتاريخ البشر المعروف لنا اليوم ، ولا ماذا يجري تحديداً لهذه الجماعة أو تلك من اختلاف في الظروف وفي مواقيت هذه الصحوة بين ما تم من آلاف السنين وبين ما لم يتم إلاَّ من قرنين أو قرن واحد وربما أقل من قرن ، وما هو الشاهد على انقضاء الصحوة وامتداد الإغفاء واستمرار ذلك حتى تنقرض الجماعة وتندثر معالمها .. ولا ما هو الشاهد على تداول أوقات اليقظة والغيبوبة لتبقى الجماعة حية مزدهرة حيناً ومتدهورة حيناً آخر .. لا ينقطع أملها في الازدهار ولا بحثها عن العودة إليه .

ذلك أن المهم هو بقاء فرص الجماعات في الوجود ومواجهة احتمالات الحياة الاجتماعية بخيرها وشرها ، وبقاء وجود ذلك الصنف من الآدميين الذين سلفت الإشارة إلى أنهم طليعة تشهد بحيوية النوع الإنساني والتمسك

بنعمة العقل وبالإحساس بالأمانة أو بالحاجة الداخلية إلى إعلان ما يعتقدون أنه حقيقة وصدق ، وبضرورة اجتذاب آخرين إلى رأيهم وعقيدتهم مهما كلفهم ذلك من عناء أو عرضهم للمخاطر والمشاق !

من تراب الطريق (٥١٩)

عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٤) (*)

يبدو أن عقلية الجماعة ، وليس سحنة ومعالم أفرادها البدنية ، هى التى تميزها وتشخصها ، كما يبدو أن الجماعة أى جماعة تتغير تماما إذا تغيرت معظم أرصدتها الفكرية والعقائدية .. أعنى مأثوراتها ومفاهيمها وعاداتها السلوكية والخلقية ومصدقاتها وعقائدها وتصير جماعة أخرى مختلفة تماما عما كانت عليه ، برغم احتفاظ معظم أفرادها أو جانب كبير منهم بمعالمهم البدنية المشتركة التى كانت لدى أسلافهم .

فالجماعة المصرية الآن ، ليست فى مقوماتها هى الجماعة المصرية قبل الغزو البابلى أو الفارسى ، وليست هى الجماعة التى كانت موجودة إبان العصر المقدونى أو الرومانى ، وغير الجماعة التى كانت فى عصر الفتح العربى أو الفاطمى ، أو الحكم الأيوبى أو المملوكى أو التركى ، أو فى القرن التاسع عشر ، أو خلال التغيرات التى طرأت فى القرن العشرين .

وهذا لا يمنعنا ، كما لا يمنع غيرنا بالنسبة لتاريخهم وبلادهم لا يمنعنا من توقد عاطفة الاعتزاز والتعلق بأمجاد من سبقونا من القدماء والافتخار بالآثار التى تركوها والشوق إلى إحيائها والرغبة فى أن يرانا العالم فى الإطار المجيد لتاريخنا .

والمهم أن نعى دائما عقلية الجماعة ، وأن ندرك أن بطء هذا التغير ليس معناه ثباته ، وإنما لأن هذا التغير الدائم لا يشعر به معظم الناس لانشغالهم

(*) المال ٥/ ٩/ ٢٠١١

بأمورهم وشئونهم ومصالحهم .. وذلك طبيعته أن الجماعة جماعة أحياء لا أموات وجماعة فانين لا خالدين .. يدخلون حياتهم إيجادًا من عدم ويغادرونها خروجا من وجود ، لتستمر ساقية حياة الآدميين فى الدوران المتكرر والمتغير معا .

ومن أهم ما يتعرض للتغير فى عقلية الجماعة أى جماعة إحساس أفرادها كبيرهم وصغيرهم بوجودها وضرورة انتمائهم إليها واعتزازهم بهذا الانتماء والاستعداد والسرعة لتلبية متطلباته ، أى بالغيرة الجادة على الجماعة وصوالحها والإيمان بتقديم صوالحها على الصوالح والأغراض الخاصة بالأفراد ، وبالجماعات الأخرى . وهذا الانتماء احتاج تجميعه وتكوينه إلى زمن واعتياد طويل نسبيا .. قد يزول بسرعة مع المحنة الشديدة الشاملة ، وقد يفقد وجوده رويدًا رويدًا مع الاطمئنان إلى الرخاوة وإلى دوام الأمان والاعتياد على الالتفات المركز على الأغراض الفردية الذى يُنْسى الناس معنى الانتماء إلى الجماعة وأنه يعنى تقديم حياتها على حياة الفرد .

وليس معنى هذا أن يقظة عقلية الجماعة لدى أفرادها تستلزم زوال أنانيتهم أو إضعافها .. لأنها لا تلغى قط هذه الأنانية قليلا أو كثيرا .. وإنما تستلزم فقط الإيمان بتقديم صوالح الجماعة عند تعرضها للخطر ، وبالاجتهاد فى ألا تتعارض معها صوالح الأفراد بل تتمشى مع ما فيه نمو واتساع مصالح الجماعة .

ثم إن هذه اليقظة أو الصحوة ، حين تشمل غالبية أفراد الجماعة ، تكون موجة عالية تجتذب ويتيه بها الأفراد عادة على الجماعات الأخرى . ويستحيل على الجماعة أى جماعة الاحتفاظ بعلوها ثابتا عبر العصور ..لأنها تميل شأنها

شأن كل طاقة عالية إلى الفتور وإلى الهبوط بامتداد أوقات الرخاوة والطراوة والأمان ، أو بطول أزمنة الحرمان الذى كان ضريبة ما حققته من علو . ولذلك تعمد ثقافة الجماعة حرصًا عليها بإلحاح واجتهاد الدين والآداب والفنون في الإشادة والتذكير بها .. فى محاولة لا تكاد تنقطع لتثبيت صورها حيّة فى نفوس وعقول عموم الناس ، وقد تنجح فى ذلك لبعض الوقت وبعض الظروف والأحوال ، وقد تنتهى بأن تطرب لها الأفئدة فقط طربًا لا يحمل إرادةً عامة أو إيمانًا قويًا مشتركًا ، ويصير مجرد مقولات حماسية أو وطنية كسواها من الأناشيد التى تتعزى بها الجماعات ، وتطرب لها حيناً ثم تنساها عقب الانتهاء من ترديدها أو سماعها !

هذا وربما نعيش الآن فى عصر ابتعدت فيه عقلية الجماعة عن الخطوط التى عرضناها ، بل لعلها هي نفسها قد ابتعدت عن التأثير المحسوس فى حياتنا الواعية .. أى حياة غالبية الناس .. فلا يكاد يشعر بها إلاّ قلائل غير عاديين ، ونكاد نقول إنها لم يعد يشعر بها أحد فى حياته الواعية ، وإنها باتت فعالة فقط فى حياة الناس غير الواعية فى الغالب . المبنية على العادات والأعراف والتقليد والمحاكاة .

ربما كان ذلك بسبب إسقاط شأن عقلية الجماعة فى البلاد المتقدمة ، ثم فى البلاد المتخلفة المقلدة لها .. وقد حدث ذلك ، إلى حد بعيد ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بفعل نمو وسائل الإعلام نموًا سرطانيا واتساعها اتساعًا هائلا وتعدد وسائلها وأدواتها وتسلط الدعاية والإعلان والأغراض التجارية والنفعية والمذهبية عليها ، وضخامة الأموال والمصالح الدنيوية .. الدولية والمحلية التى تستخدمها وتوجهها .. وهى وسائل تلوك فى كل

لحظة ذكر هذه أو تلك من المضامين التى هى أصلاً من أغلى مكونات عقلية الجماعة !!

وهذا الذى يؤدى إلى رخص هذه المضامين ، وأثره كأثر الجمود والتحجر ورفض التغيير والتطوير يجرى من أجل ترويج أية فكرة أو معلومة أو رأى أو قضية أو حركة أو اتجاه أو مشروع أو سلعة أو غرض .. بلا تقدير للمسئولية وبلا إخلاص فى تحمل التبعة ، مما كانت نتيجته تخلخل إيمان الأفراد بالجماعة ووهن حرصهم القديم على الانتماء إليها والعناية بها وتقديم صالحها المشترك على الصوالح والأغراض الخاصة ، ومن ثم تماهى ووهن وفتور الاستعداد الفردى عند الضرورة ، لفداء الجماعة بالأموال بل بالأرواح .. والإقلاع بالوعى وباللا وعى عن العناية بالعقل الجمعى ، أعنى عقلية الجماعة ، والالتفات ولو لدى القلة إليه وإلى مقتضيات رعايته وتخصيبه ليبقى حيّاً متطورًا يخرج من دوائر الجمود أو التخشب أو التحجر !!

من تراب الطريق (٥٢٠)

عقلية الجماعة بين (*) التراجع والجمود والتطور (٥)

ويبدو أن الخلل الذي أشرنا إليه ، وأصاب ويصيب بعض الجماعات ، ملحوظ الحدوث مع الترف والطراوة والرخاوة ، وملحوظ الحدوث أيضاً في الاستمتاع بالحريات العامة دون الالتفات إلى موجباتها ومقتضياتها .. ربما لأن شيوع هذا الاستمتاع المتحلل من التبعة يطلق العنان للأهواء والأغراض والمآرب والشهوات ، ويؤدي قصداً وبغير قصد ، إلى الترخص في القيم والمعتقدات ، وقد يسمح أو يؤدي إلى قلة المبالاة لدى الكثرة الكثيرة من الناس .

ومثل هذا قد لا يوجد في الجماعات المقهورة المغلوبة على أمرها ، المحرومة من الحريات العامة نتيجة استبداد الحاكم وبطشه واستبداد إداراته وبطشها ، وشيوع الفساد وتوابعه من انحصار الحكام في ذواتهم وفي مصالحهم ومآربهم وتوطيد دوام حكمهم أو ملكهم باستمرار التحكم في مصائر الجماعة المقهورة .. وقد يتشهى أفراد هذه الجماعة المقهورة فيما بينهم وبين أنفسهم ويتمنون انقشاع هذه الغمة ، وانقشاع القهر والخوف ، وانحصار أدوات ووسائل البطش ، وزوال الباطشين ، والأمل في مجيء اليوم الذي يُحترم الآدمي لآدميته وحدها .. من الحاكم وبطانته وأعوانه وأدواته .. وأن تكون له مكانة وحقوق محل إقرار واحترام لدى الجميع .. لا يمكن أن تضيع أو تُضَيّع أو تُتَجاهل أو يتعدى عليها .

(*) المال ٦/ ٩/ ٢٠١١

في مثل هذا الجو القاهر ، وقد عانيناه في مصر ردحاً طال من الزمان ، تعيش عقلية الجماعة محصورة مقهورة مغبونة .. لا تعيش من أجل ذلك على الواقع المر القاسي القاهر الذي تعانيه وتكرهه وتهرب منه ، وإنما تعيش على احتشاد الرجاء وتجمع الآمال وتمني أن تكون هذه الأماني محققة لإنصاف المقهورين ، وأن تجيرهم من عجزهم للتغلب على الظلم والجور والقهر والإذلال والهوان !!

هذه العوارض الثقيلة ، صوارف تصرف تحت ثقل وطأتها شعور الناس بقيم الجماعة وقوتها وسبل إطلاق هذه القوة من عقالها وكيفية الاستفادة منها بالاستناد إلى عقلية الجماعة للكفاح بها والاهتداء بقيمها وبوصلتها من أجل الخلاص والحرية .

إن عقلية الجماعة هي زادها الحقيقي ، ومناط فاعليتها ، تُضَار بالجمود والتحجر ، كما تضار بالإهمال وبالالتفات عنها وعدم العناية برعايتها وتخصيبها لتواكب الحياة التي في صيرورة دائمة ، لا تكف عن الحركة ولا عن موجباتها من التغيير والتطور والترقي ..

إن فضائل أي مجتمع ، تتوقف على عقليته .. وهي أي الفضائل من أهم مقومات تلك العقلية الجمعية .. ومهما حاول أو يحاول أي فرد ، أياً كان مركزه ومهما كانت قوته أو أدواته أو وسائله مهما حاول أو يحاول مقاومة جماعته أو قهرها أو معاداتها أو الجور عليها فإنه لا ولن يستطيع أن يصل إلى شيءٍ دائم مستقر يحقق له أطماعه المريضة ، ومآله المؤكد إلى الانهيار مهما طال به الزمن ..

والشاردون شروداً وقتياً أو عارضًا ، غير نابع عن طبع أصيل وغرض مقصود ، لا يعدمون نهائياً هذه الفضائل التي تقوم عليها مقومات الجماعات

وعقليتها وحياتها .. ولا يستطيعون لذلك أن يتخلصوا نهائياً من نداء فضيلة أو أكثر من فضائل المجتمع المستقرة في ضميره وأعماقه . ومرجع ذلك فيما أبدينا ، إلى أن عقلية الجماعة مزيج من أثر العقول والعواطف المترسبة في الأعماق .. وربما يختلف قوام هذا المزيج لدى الأفراد .. شدةً وضعفاً وكثافةً وضحالةً وصلابةً ورخاوة .. تبعا لاختلاف الاستعدادات والظروف والأزمنة والأمكنة .. بيد أنه لا توجد قط فضائل فردية صرفا ، فهى من مقومات ومدد الجماعة ، لأن الآدمى كائن اجتماعى بفطرته .. فإذا انعدم ارتباطه بالمجتمع ، وهو ما يحدث للحكام حين يشتط بهم الاستبداد ويوغلون فى عبادة الذات ومصالحها ، ينفصل الحاكم عن قيم مجتمعه وفضائله ، ويمسى شريداً منبتا يعادى المجتمع ويعاديه المجتمع .. سراً إذا خاف بطشه ، وعلنا إذا تجاوز قهره !!

فإذا كانت الفضائل مردودة دوماً إلى المجتمع وعقليته وقيمه ، فإن المواهب والملكات دائما فردية .. لأن مصدرها الخلقة والخالق عز وجل ، وليس الاجتماع والجماعة الإنسانية . ولذلك كان الأمل الدائم ، فى كل عصر ، فى هذه المواهب الفذة والملكات العبقرية ، التى هيأت وتهيئ للبشرية من وقت لآخر ، مقاومة الجمود والتخشب والتحجر وكسر شرانق الاعتياد ، والخروج من وهدة الظلم والإظلام ، وتحقيق الطفرات التى دلت شواهد التاريخ ، وبعض صور الحاضر على أنها نتاج تفاعل هذه المواهب الفذة مع جماعتها الإنسانية ، لتخرج بها إلى النور ، وتحقق أمانيها فى الاتصال الواعى الفاهم لسنن الكون وقيم وقيمة الحياة .